

تصدير

أمين الريحاني

١٨٧٦ - ١٩٤٠

جرأةٌ نادرة ، وقلمٌ مُرهف ، ولسانٌ حادٌ ، وقلبٌ حديدىٌ مقدام ، لا يخشى المهالك ولا يرهب الأخطار ، اتكاله على الله والإيمان به إيماناً صادقاً قوياً زينه بالمآثر الحميدة والمزايا الشريفة ، ترفع عن المادّة ولو أرادها لانقادت إليه صاغرة ، ولتجمع ثروة طائلة ، ولكنه أبى أن يتزلف إلى أصحاب الشأن ، بل أراد أن يعيش أياً شريفاً ، يكتب بما كان يدرّ عليه قلمه .
أحبّ الإصلاح ، وأحبّ العرب حبّاً صحيحاً صادقاً ، نلمسه في كتابه ملوك العرب وتاريخ نجد الحديث والقوميّات ، وسنعرض إلى شيء منها في دراستنا هذه .

لقد حمل على التقاليد والتعصّب الذميم ، وحارب المستبدّ والمستعمر بكلّ ما أعطى من قوّة ومواهب عقليّة . كان يكتب ويدبج المقالات والخطب يدعو فيها إلى المحبّة والإخلاص ويدعو فيها ملوك العرب وأمراءهم وشيوخهم إلى توحيد كلمتهم ، والعمل بيد واحدة على إنهاض الشرق من كبوته ولا سيّما البلاد العربيّة التي شغف بها وجال في أنحائها ، ودعا فيها إلى الوثام والألفة بين مطلق أبنائها من الوجه الكبير إلى الصعلوك الحقير .

ورأى بأنّ عينيه أن البلاد العربيّة أصبحت لقمة سائغة تنقسمها المطامع الاستعماريّة وقد وجدت في أرضها البكر منافع لها وموارد اقتصادية ، تستدرّها من منابع الزيت والمناجم التي ستكتشفها ، وتصيب من خيراتها . تلك المناجم الحيرة التي تنتظر اليد العربيّة القويّة والساعد المفتول لتظهرها من جوف الأرض منفعة للناس ومشروعاً سائغاً للعيش .

ونحن بدراستنا هذه لا نريد إلاّ أن نعلن صفحةً مجيدةً بيضاء عن إنسان عاش بيننا نحو ستين عاماً ، كان نصفها درساً واختباراً ، والنصف الآخر تعليمًا وجهاداً وجباً وإخلاصاً لأرض العرب وأمّتها . وسرى فيما نحن مقبلون عليه من آثار قلّما ما يستفزّ النفوس ويبعث فيها حميّة ونشاطاً وعزّة وحرية وإليك ما قال بعنوان : الثورة « ويومها القطوب العصيب ، وليلها المنير العجيب ، ونجمها الآفل تحدج بعينه الرقيب ، وصوت فوضاها الرهيب ، من هتاف ولجب ونحيب وزئير وعندلة ونعيب ، وطغاة الزمان يسامون ناراً ، وأخياره يحملون الصليب .

ويل يومئذ للمستكبرين الظالمين .

هو يوم من السنين بل ساعة من يوم الدين .

ويل يومئذ للظالمين » .

وهي قصيدة نثرية تعجّ بالنار والحديد نكتفي بسرد مقطع آخر منها : « هي الثورة وأبناؤها الحفاة . وصبيانها المسترجلون العتاة . ورجالها الأشداء الأباة . ونساؤها المنمرات . وخطباؤها وخطيباتها الفصيحات . وزعمائها وزعمياتها المتمرّعات .

ويل يومئذ للظالمين » .

وفيها يذكر بالرومان واستبدادهم وفرنسا ودكّ « البستيل » وقطع رأس لويس السادس عشر . ونبأ الإنكليز يوم بايع القوم بيّاع البجة كرويل زعيم الثورة الإنكليزية التي انتهت بمقتل شارل الأول ، والثورة الأميركية^(١) .

فأمام هذه الكلمات النارية ، يجدر بنا أن ننظر في آثار الرجل وتبين ما كان يحول في خلده ، وينبض به قلبه من حبّ أكيد وإخلاص شديد لأمنه العربية وللإنسانيّة المتألّمة من جور المستبد الظالم .

ومن أقواله : « لا المجد ولا الشهرة أمنيّ القصوى ، لا السيادة ولا العظمة ، لا المال ولا الثروة . وإنما أمنيّ الجوهرية هي أن أكون بسيطاً في أعمالي ،

صَادِقًا فِي أَقْوَالِي ، مُسْتَقِيمًا فِي مِبَادِي وَآرَائِي ، طَبِيعِيًّا فِي تَصَرُّفِي وَسُلُوكِي .
 حَرًّا فِي مَا أَحَبَّ وَمَا أَكْرَه . أُوَدُّ أَنْ أَكُونَ دَائِمًا نَظِيفَ الْجَسَمِ نَزِيهَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ
 بَعِيدًا عَنِ التَّصَلُّفِ وَالزُّخْرُفِ وَالْمَصَانِعَةِ . بَعِيدًا عَنِ الْجَبَنِ وَالْخَوْفِ وَالتَّذَدُّبِ ،
 بَعِيدًا عَنِ الْحُجْلِ الَّذِي يَذِلُّ النَّفْسَ وَيُمِيتُ الْحَقِيقَةَ ، بَعِيدًا عَنِ الْكُذْبِ
 وَالشُّعُورَةِ وَالْمَدَاهِنَةِ وَالرِّيَاءِ^(١) . تِلْكَ هِيَ مِبَادِي الْأَمِينِ وَتِلْكَ هِيَ أَخْلَاقُهُ ، وَعَلَى
 ضَوْءِ أَقْوَالِهِ سَنَمْضِي بِدِرَاسَتِنَا هَذِهِ نَقْدَ مَهْمَا لِلْأُمَّةِ الَّتِي أَحَبَّهَا وَأَحْبَبْنَاهَا وَهِيَ مَنْأً
 وَإِلَيْنَا . أُمَّةُ الْعَرَبِ أَخَذَ اللَّهُ بَعْدَهَا إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْفَلَاحُ .